

القسم الثالث

اصلاح القرية

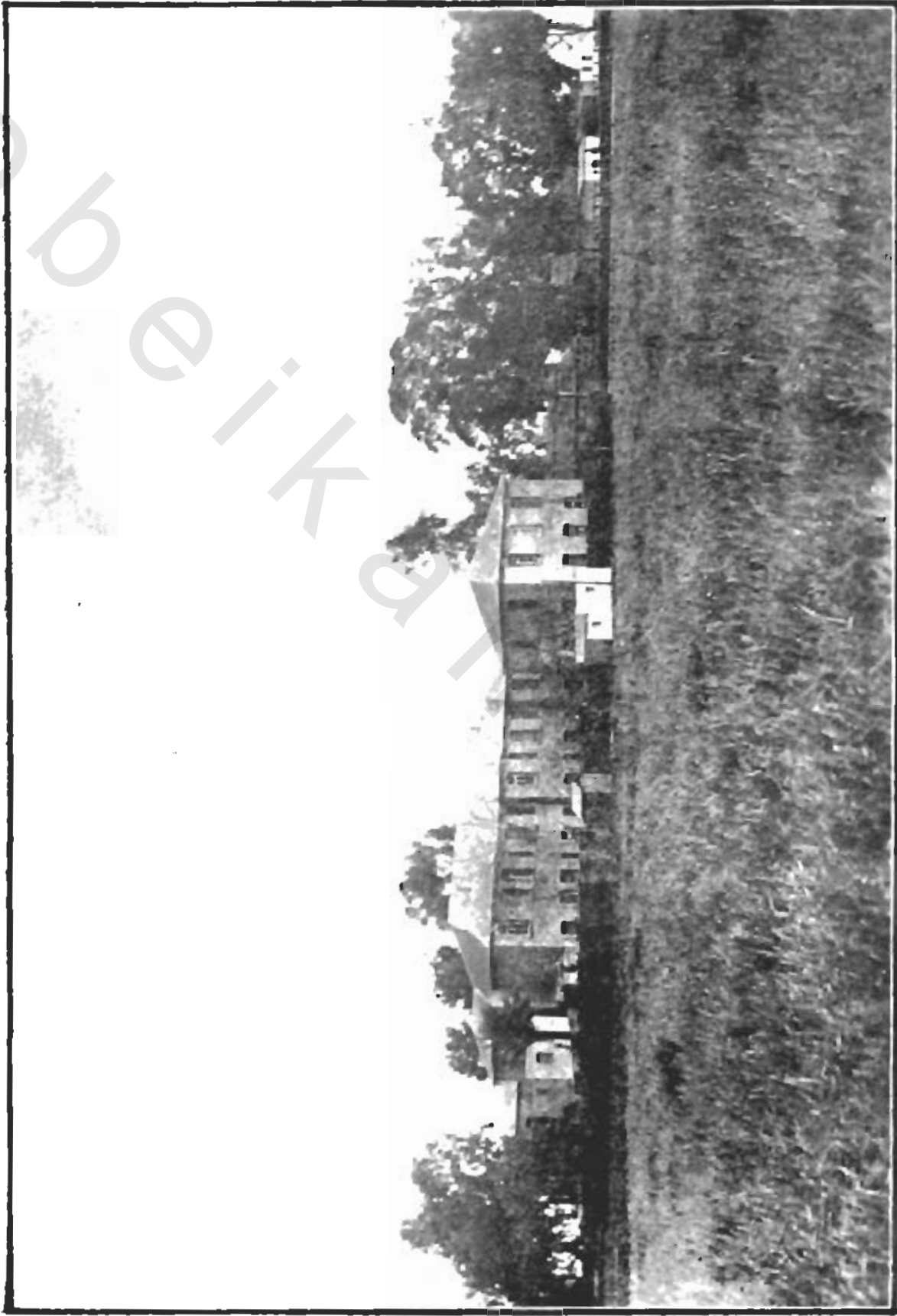
في جنة الريف !

١ - بين الحقيقة والخيال :

أما أن قرية بهتيم النموذجية كانت تلوح لي في أحلامي
خاتمة رائعة الجمال فهذا ما لا شك فيه ، وأما أن خيالي
استطاع أن يصور لي حقيقة تلك الفتنة ومقدار ذلك
الجمال ، ففي هذا الشك وفيه الارتياب !

لقد اعتدنا أن نقرن الخيال بالإسراف والمبالغة ،
وتعودنا منه أن يجمع فيرينا صوراً أروع من الحقيقة والواقع
ولكن هذا الخيال قد يعجز أحياناً عن السمو إلى روعة
الحقيقة ، ولا يقوى بجناحيه على التسامي بنا إلى جمال الواقع .
عزبة بهتيم ليست مدينة صغيرة بدیعة وسط المزارع
كما توهمت ! وكم كنت في هذا التوهم ساذجة حمقاء ، لأنها
لو كانت نموذجاً مصغراً للمدينة ، لسكانت أشبه بالغراب
الذي فتن بالطاووس ، فغطى جسمه بالريش الزاهي البديع
وإندس بين أسراب الطاووس ، فأهاجها حق ذلك الدخيل

منازل موطفي قرية سراجيم في أخصاصه الحقول والاسجار



المفتون ، وأرغمته على الابتعاد عن حظيرتها ، فلما حاول الرجوع إلى حاله الأولى ، كان قد نسي مشيته وعوائده ، وكل ما ناله هو التعلق بين السماء والأرض ! لا يقوى على الصعود إلى سماء الطاووس فيهدأ غروره ، ولا يذكر طريق النزول إلى أرضه فيستريح !

وعزبة بهتيم . . . أين يكون سراجمال فيها لو أنها كانت صورة للمدينة مصغرة ؟ أكانت تسمو إلى المدن الكبيرة فتذكر بينها ؟ أكانت تعد شيئاً مذكوراً بجانب أبسط المدن وأصغر المراکز ؟ لا والله ، وتكون بعد هذا فقدت سحر الريف وسذاجة القرى وفتنة البساطة !

٢ - كيف وضع المشروع ؟

حين عمدت الجمعية الزراعية الملكية إلى إنشاء المثل الأعلى للقرى ، لم تفكر في المدن كما فكرت أنا ، ولم تلق بالاً إلى نظام المعيشة والمباني ، وإنما عمدت إلى الريف ، تستلهم من عيوب القرى وانحطاط مستوى المعيشة فيها ، وحيّاً لتصميم العزبة النموذجية !

لقد نشأ مدير الجمعية في صميم الريف وشاهد عن كثب وهو طفل ، أى نوع من البؤس يهيم فيه الفلاح ، فلم يملك

له إلا التآلم والرثاء . ولكن هذا التآلم كان نواة المشروع ،
التي نمت مع نمو الطفل ! فلما شب غلبت عليه نزعته العملية
الصميمة فرأى أن نظام تأجير الأطيان غير عادل ! ذلك
لأن تأثير الظروف الجوية والمائية على كمية المحصول ،
وتأثير تقلب الأسعار وكثرة المضاربات في سعر المحصول
يجعلان أحدا الطرفين - المالك والمستأجر - ظالماً ، والطرف
الثاني مظلوماً ! وأرقه التفكير أياماً وليالي حتى اهتدى
وهو في سن العشرين ، إلى نظام الاشتراك ، يزرع الفلاح
الأرض ويقتسم هو والمالك ما ينتج منها !

ثم مرت الأيام ، وأتاح له عمله كمدير للجمعية الزراعية
الملكية ، أن يعيد التغلغل في الريف ، وأن تعاوده ذكرى
الشقاء الأليم الذي شاهده بعينه يستبد بالفلاح المجاهد !
وتحركت بذرة المشروع في رأسه تطلب الحياة . . . فحمل
أوراقه وقاد قافلة رجال الجمعية إلى القرى وهناك . . .
في الغرف الضيقة المظلمة التي يملؤها دخان الفرن ورائحة
روث البهائم ، وضع تصميم غرف مزرعة بهتيم ! وبجانب
حظيرة الماشي التي تختلط بغرف الدار وتملأ المكان
رائحة نتنه قذرة ، وضع تصميم حظائر بهتيم الصحية

المنظيفة ، وفي كتاب القرية حيث يحتشد الصغار أمام «سيدنا»
وتحت رحمة عصاه الغليظة القاسية ، وضع تصميم مدرسة
بهتيم الصحية المشمسة الواسعة ، وعلى حافة التربة حيث
تكثر القرويات يملأن الجرار ويغسلن الثياب البالية
والأواني المتواضعة الرخيصة ، وحيث تعوم جراثيم
البلهارسيا والانكلستوما ، منتظرة أجسامهن الدافئة
لتلتصق بها وتفترسها ، وضع مشروع مياه بهتيم ، التي ترفع
بالآلات الرافعة من بئر ارتوازية إلى خزائين مرتفعين ،
يغذيان مرافق العزبة بالماء النقي الطهور ، وهكذا تم المشروع ،
في صميم القرى ووسط غمرات شقاء الفلاحين ، وليس في
المدن كما توهمت وكما يتوهم غيرى كثيرون !

٣ - في الطريق إلى جنة الريف :

محطة شبرا ، مفترق الطريقين ، المدينة والمزارع !
تطلعت من نافذة السيارة إلى القاهرة ورائى تتضاءل
وتتلاشى بضجيجها ، وتطلعت أمامى إلى الفضاء المتسع
الرحب الذى لا يدرك نهايته الطرف ، وإلى الحقول الحية
تترامى منبسطة حتى نهاية الأفق نابضة بالقوة والحياة والجمال
شم . . . تطلعت إلى السماء وفي عيني أذل أنواع الضراعة

والإبتهاال : رب إني بأئسة تعسة ، وأعلم أن من المستحيل
نسيان الآلام العاصفة التي تستبد بي ، ولكن يا رب ! هبني
النسيان !

وانسابت السيارة بنا وسط المزارع الرائعة ، وكلما بعدت
عن المدينة وتلاشى الصوت ، خف ضغط الألم الذي يحتم
على صدرى ، ثم ما كادت السيارة تجتاز بنا ممر شبرا (المزلقان)
حتى تحررت من أفكاري - لا أدري كيف ؟ - وأحسست
كأنما أنا بعيدة عن العالم بشروره ومتاعبه ... كم وددت
لو أغادر السيارة ، وأغمر وجهى الملتهب ، برطوبة سيقان
القطن الفارعة الخضراء ، ثم أصلى ركعتين لله العلى العظيم !
ولحنا عن بعد لافتة كبيرة عليها « مزارع الجمعية الزراعية
الملكية » فعلمنا أننا مشرفون على معقل الجهاد والوطنية
العاملة ، ثم انحرفت بنا السيارات يمينا وكأنما هى تنحرف بنا
إلى حياة أخرى غير الحياة المقيدة التي نعرفها ! وبدأت
أفواج القرويات تطالعا وتهتف بي أن ألتفت محيية !
فانصرفت بوجهى وقلبي إليهن لأشهد وجوها مشرقة
بسامة تفيض سحرا وصحة ووداعة ، ولأذكر الوجوه
الشاحبه الذليلة التي تشوه جمال الريف المصرى ، ووجوه

النساء الكاذبة المزيفة المصنوعة التي تطالعنا في المدن ! ولم
أملك أن صحت من أعماقي : ما أجملكن !
أين نحن ؟

في العزبة القديمة ! آه . . . كأنما خشيت الجمعية على
زائريها قسوة المفاجأة ! أو كأنما أحبت أن تدع لنا فرصة
المقارنة . . .

وأحاط بي الأطفال يسألوني في سذاجة محبة إلى النفس
عن اسمي ، وكأنهم ينكرون على سعادة المدير عدم تقديمي إليهم !
ولما أجبت مطلبهم عادوا منتصرين ، وسمعت زينب الطفلة
الصغيرة الوديعة تهمس في أذن أخيها الصبي : أنت مش
عارفها يا عبيط ؟ دى ست فلانة ! وألحوا على أن أزور
دورهم ، فاستسلمت في ضعف مضحك ، وقادتني زينب إلى
الدار . حيث كانت أمها تقطف ورق الملوخية في نشاط
وبشر . وقدمتني إليها فرحبت بي أكرم الترحيب .

وسألتهن . . . ألا يؤمسن العيش هنا في العزبة
القديمة ؟ فأجبن جميعا : حفظ الله سعادة البك ، سيبنى لنا
عزبة ثالثة إن شاء الله ، لأن الجديدة لا تتسع لنا جميعا . . .
دور القرية القديمة لا تختلف عن الدور الريفية المعتادة

ولكن ساكنيها ينعمون بعيش هنيء إذا قيس بحياة غيرهم من القرويين ؟ ففي الدور خبز وافر وجبن مخلل ، وفي أغلبها طيور وحبوب كثيرة ، وعلى المواقد شاهدت أواني البامية والملوخية والفاصوليا . ووجوه المزارعين تشعر بأنهم يحيون حياة بسيطة معقولة .

إلى العزبة الجديدة إذن ؟ لا وإنما إلى معامل التجارب وحظائر الماشية واصطبلات الخيول أولا ؟ وأشرفنا على فناء متسع رحب ، على جانبيه اصطبلات صحية جميلة التنسيق ، تضم أكبر وأجود مجموعة للخيول العربية الأصلية . وأعطيت الإشارة ففتحت الأبواب ، ووقف على كل منها سائس ممسك بعنان جواد وأشار إلينا الجميع مرحبين ثم سارت الخيول أمامنا في استعراض دائري عجيب ، يتقدمها « ابن ريدان » الجواد العجوز الذي سُمّ المجد وكسب معارك السباق ما يقرب من عشرين عاما حتى لم تعد تغريه ، فهو ينظر إلى بقية الخيول وكأنه يدل عليها بتجاربه وسعة علمه ، وكأنما تبدو له آمالها صغيرة ساذجة . وتبعه خميس وعمره تسع سنوات ، مثال الجواد العربي ! ضامر البطن طويل السوق والعنق ، مرفوع الرأس في شيء

من الدل والكبرياء ، وانتهى الاستعراض « بابن ابن ريدان » الصورة المصغرة من « ابن ريدان » الشيخ في سن الثمانية ، ومثال الجمال والقوة والشباب — أخبرني يا دكتور! أئذا أعقب « ابن ابن ريدان » مهرا ، أقسمونه ابن ابن ابن ريدان أم ابن حفيد ريدان ؟

فعلا ضحك الجميع وأنبئت أن الجمعية ستختار له اسما آخر كما ستغير اسم جواد أوربي الاسم . وانطلقنا إلى ضيافة البقر والعجول ! فحيتنا صغارها بالقفز والوثب ، وحيثنا كبارها تحية رزينة حيث ضربت الأرض بحوافرها لتشعرنا بقوتها وهيبتها .

وشاهدت بقرة لها لون نادر لا عهد لنا به في مصر ، وأخبرني حضرة الطبيب البيطرى أنها أوربية ، اشتريت لتجربة الإنتاج المختلط ولأنها تدر لبنا أوفر من البقرة المصرية ، وإن يكن مقداره أقل مما لو كانت في موطنها . فقلت : هذا كرم منها ! واستدرك الطبيب : لا ولكنها تأكل طعاما أكثر من البقرة المصرية - يا سبحان الله ! حتى البقر الأجنبي لا يعطى شيئا إلا بالثمن !

واسترعى سمعنا صياح الديكة ، فلبينا النداء وانطلقنا

إليها فاذا بها حبيسة في أمكنة ضيقة ! هل جنت ذنبا ؟ لا
ولكنها تجربة لمعرفة أثر قلة الحركة في زيادة « السمنة »
وتركت حضرة الأخصائي يشرح نظرياته ، وذهبت
إلى أسراب الأوز التي فتنت عيني بريشها الأبيض الناصع
المنفوش كأنه ريش النعام !

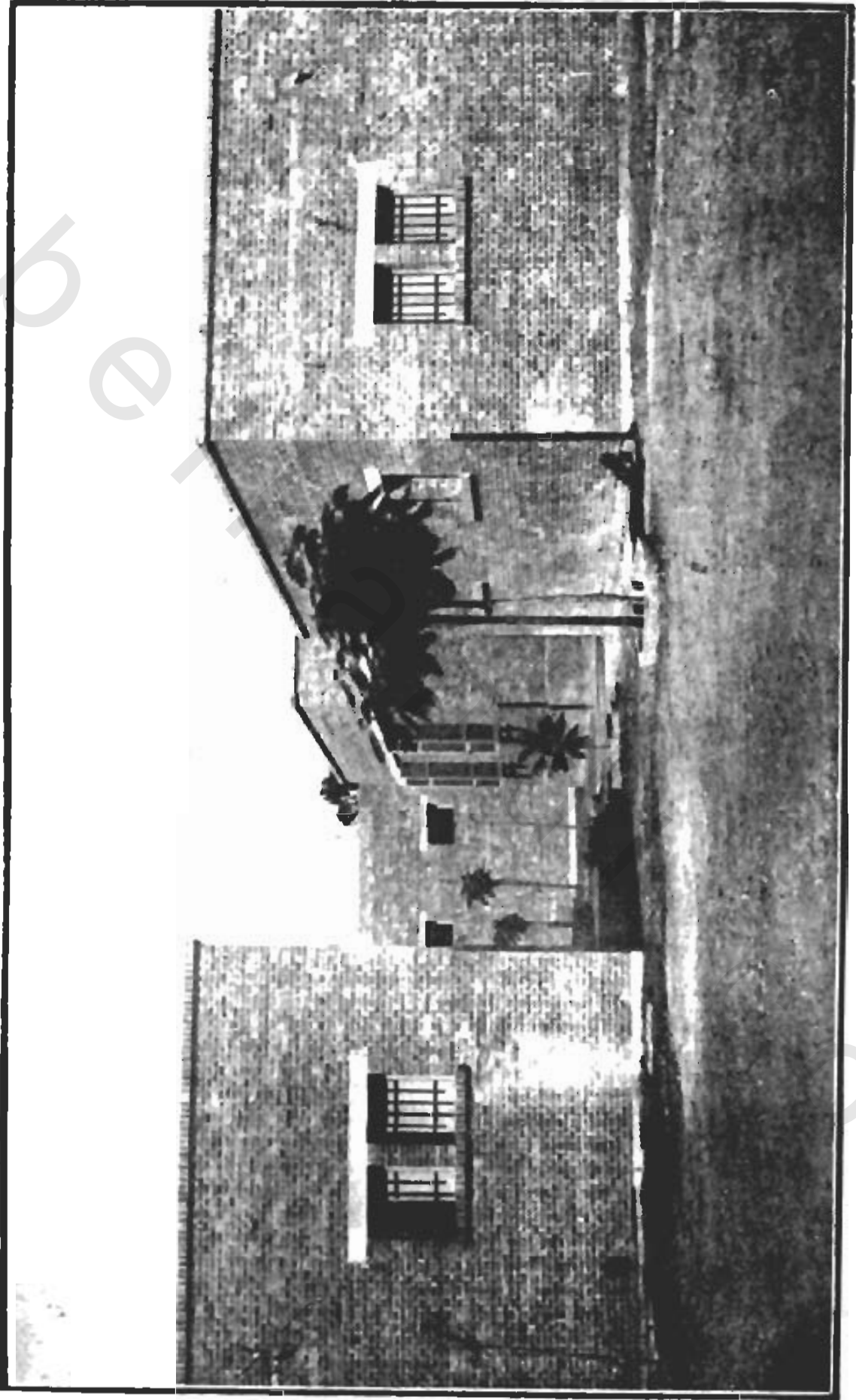
٤ - في جنة الريف !

واحتوتنا بعد هذا العزبة النموذجية لتفتتني عن حياة
المدن ، ولتثيرني على المعيشة بها ! الجملة الصادقة التي تصف
العزبة هي أنها « شيء لا يتصور بالخيال ولا يوصف بالكلام
المبتذل المعتاد ، وإنما تعرف وتدرك بالعينين ! »
هنا تبدو عظمة الريف المصرى وروعة بساطته !
لا في القرى الأخرى التي يشوه جمالها بؤس أليم وحياة
شقية ، ومساكن مظلمة بائسة !

هنا يتحقق مبدأ حضرة الرجل المصلح فؤاد أباطه بك
في أن الإسراف في الأناقة يجعلنا أصدق شعورا بألم البؤس ،
وأرق قلبا على التاعس المسكين .

هنا يتخلص الإنسان من آلامه ومتاعبه وينسى كل
شيء إلا روعة الجمال الذي ينكشف أمامه سافرا !

فندق الربيف كما يبدو في القرية المحموزية



هنا يحتقر الإنسان رياء المدن ، وتبدو عظمتها ضئيلة
ثقافة أمام روعة الفطرة والبساطة .

أفى الريف نحن ؟ أجل ، ولكن فى أفق جنة به !
المباني لا ترتفع فى الجو ولا تحجب الهواء ، والطرق
نظيفة واسعة تسمح للشمس بأن تلقى أشعتها على الدور
طول النهار ، وتنتهى إلى ميدان متسع كأنه قلب القرية ،
والغرف صحية عالية الجدران يملؤها ضوء الشمس والهواء ،
والقرويون يمشون هنا وهناك ، وعلى وجوههم نظرة
الصحة والقوة والرضاء ! والأطفال يملئون المكان بهجة
ومرحا ، ويلوحون فى ثيابهم النظيفة البيضاء كالملائكة ...
دخلت فى أول دار قابلتني فأخذتني روعتها وبساطتها ،
هذا « الزير » فى الصدر محمولا على حامل ساذج من جذوع
الشجر ، وحظيرة المواشى والمرحاض الصحى النظيف إلى
اليمين ، والفرن إلى اليسار وفناء الدار رحب مكشوف
يتجدد هوائه فى كل وقت ، وتغمره أشعة الشمس ، وفى
الصدر بهو يؤدي يمينا إلى غرفة نوم على أرضها قطعة حصير
وعلى المصطبة - سرير الفلاح - كليم مصرى زاهى اللون ،
وعلى الصندوق الخشبي وسادتان وغطاء ، ويؤدي يسارا

إلى حجرة واسعة أعدت للجلوس واستقبال الضيوف ،
أنيقة على بساطتها وبساطة ما فيها . فقد صفت الأرائك
الخشبية مغطاة بالأكلية ، وزينت الأرضية بقطعة حصير
نظيفة . واسترعى انتباهنا نقطتان من الأهمية بمكان ، الأولى :
كون الفرن بعيدا عن غرفة النوم ، والفلاح مولع بالنوم
فوقه عند ما تشتد قسوة البرد في الشتاء ! والثانية ، كون باب
حظيرة الماشية مطلا على فناء الدار .

وتمهلت قليلا أفكر ! لو أن الفرن وضع في غرفة
النوم لضاعت الفائدة الصحية التي ضحت الجمعية في سبيلها
بآلاف الجنيهات ، ولتصاعد الدخان مختلطا بهواء الغرفة
ليستنشقه أخونا الفلاح كما هو الحال في القرى الأخرى ،
ولو أبعدنا حظيرة الماشية عن الدار ، لفرقنا بين الفلاح
وبين ما يحب ! فللجاموسة عند المزارع منزلة الابن ، ولن
يهدأ في نومه ما لم تملأ الدار بصوتها المنكر ! ما العمل
إذن ؟ الجواب عند حلال المعضلات ، فؤاد أباطه بك
صديق الفلاح .

فأما عن الفرن فهو يرى أن خير وسيلة لتحقيق رغبة
الفلاح ، ولا تتنافى مع قواعد الصحة والاقتصاد ، هي أن

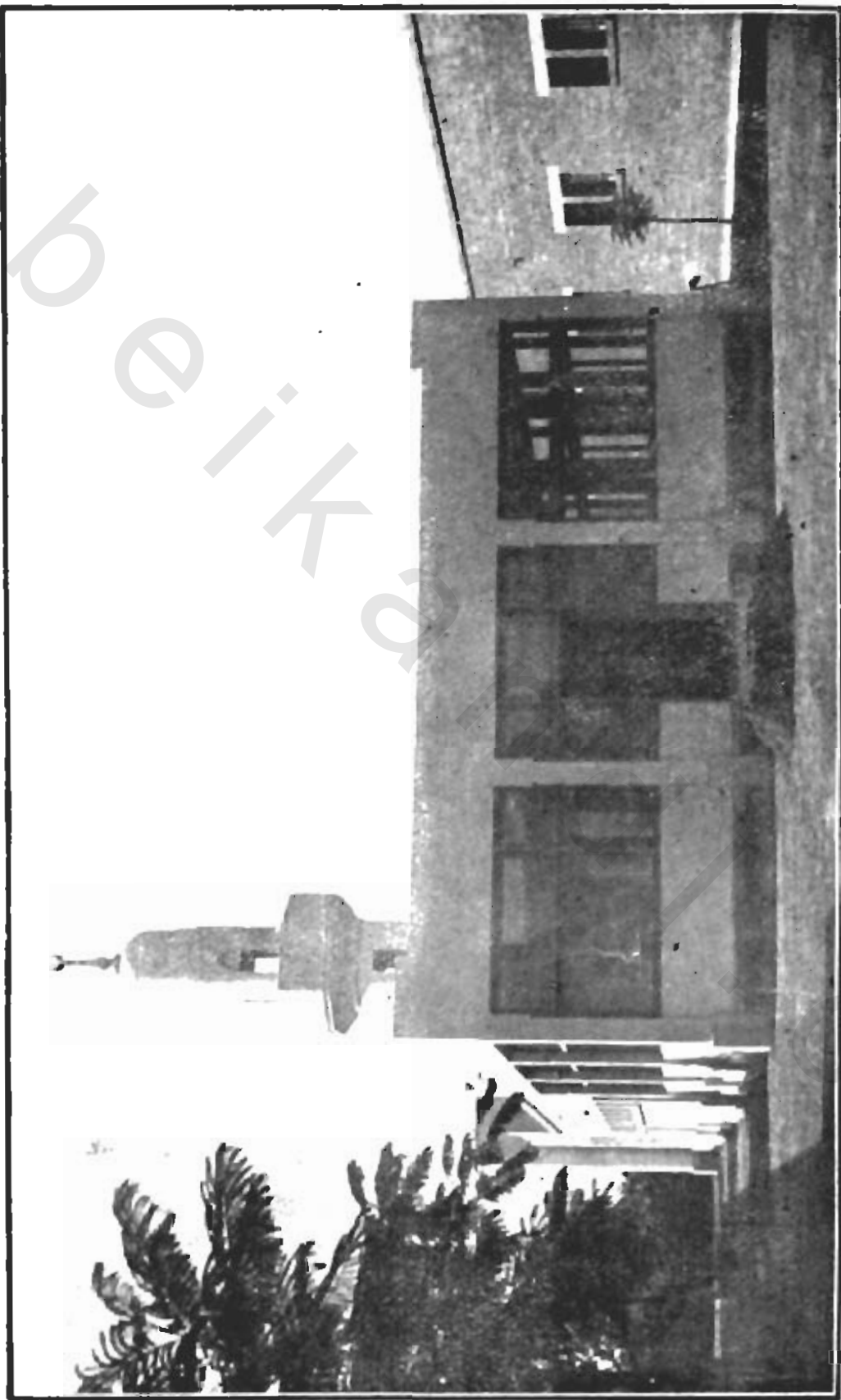
يخترق الفرن الجدار ، بين غرفة النوم وفناء الدار ، بحيث تكون فتحة في الفناء لتقذف بدخانها إلى الجو بعيدا عن الفلاح ، بينما يكون جسم الفرن في غرفة النوم ، حتى لا نحرم الفلاح ولا نحرم دليانا عم الحاج أمين (وهو شيخ في الثمانين من عمره يتمتع بصحة جيدة) من نشوة الاستمتاع بنوم الفرن في الشتاء !

وأما عن حظيرة المواشى ، فالرأى عند سعادة حافظ عفيفى باشا ، أن يسد الجدار المطل على فناء الدار ، ويفتح لها باب آخر من الخارج تدخل الماشية منه وتخرج ، على أن نرضى لهف الفلاح عليها بفتحه صغيرة في الجدار « كوة » يطل منها على ماشيته كلها أحس برغبة في رؤيتها والاطمئنان عليها !

واقترحت أنا - العفو ! - أن يدق مسماران على جانبي إحدى زوايا غرفة النوم ، يوضع بينهما حبل من الليف يجذله العم أمين وتعلق عليه ملابس النوم والمناشف والجوارب حتى تجف من عرق أو بلل ، بدلا من وضعها رطبة في الصندوق .

وذهبنا إلى المدرسة حيث رحب بنا حضرة الناظر في

أدب جم غزير ، وأفرحتني بساطة ثياب الأطفال وتقارب
بيئة المدرسة من بيئة البيت ، وشاهدنا من ذكاء الأطفال
عجبا ! وفي قسم البنات راعتنا نظافة الطفلات وجمالهن في
الثياب الزاهية البراقة بقدر ما أعجبنا بطريقة المناقشة في
درس الحساب ، وحسن استعدادهن وتفكيرهن !
وهتفت وأنا أضحك ! إنهم أسعد حظا مني ! كنت
أجلس على أرض كتاب القرية وأنا أرتعد من (فرقة
سيدنا) التي أذاقتني هولا !
وانتهينا إلى المضيقة ! أين منها شرفة أفهم الفنادق ؟
إنها أشبه بالجوسق الذي يتوسط الحدائق الكبيرة عادة .
بناء رحب يسع نحو سبعين شخصا ، يغمره النور من
جوانبه المكشوفة ، ويتوسطه صفان من الأعمدة تزيد من
بهائه ، وإلى الجدران صفت الأرائك ليجلس عليها القرويون
ليلا يسمرّون ويتناقشون ، ترى كم هي فاتنة في ضوء القمر
الفضي الهادي ، حين يهب نسيم الليل محملا بعطر الورد
وشذا الأزهار ! ترى كم هي فاتنة في المساء الساكن حين
تحببها أسراب العصافير مفردة بلحنها الشجي الحنون ؟
وفي الجامع الجميل قرأت سورة الفتح ، ثم ابتهلت إلى



مكتبة قرية براثيم وخليجها المسبح
جمال وحمل

الله أن يوفق رجال الجمعية ، فيما يرغبون من خير للفلاح ،
يد مصر العاملة ، وخادمها المخلص القنوع ، ثم تركت الجمع
أسيراً في قيد الفتنة ، وجريت منفردة إلى دور القرويين !
كنت موقنة أنني سأحب نساء القرية فصيح منى اليقين !
إذ ما كدت أفاجئن حتى أحسست وأحسسن بأنى واحدة
منهن ! غلبت على نشأنى الريفية ، فأخذت أقفز وأصيح
أشد ما أكون سعادة وانطلاقاً ! وأبت كل واحدة إلا أن
تضيفنى ! فاعتذرت مؤكدة أنني لا شك سأعود . . .

ونسيت نفسى ! ونسيت الزائرين والزائرات ،
ونسيت أعمالى ومشاغلى بالمدينة ! عميت عينى عن كل
شئ إلا عن المكان الذى هو صدى لأحلامى منذ شاهدت
الشقاء الأليم الذى يغمر الفلاح !

سرعان ما ائتلفت بكل من فى القرية ! لم هذا ؟ أ يكون
لأنى ريفية المنشأ والنزعة ؟ أم يكون لأن فى قلبى جراحاً
دائمة من ذكرى شقاء الفلاح فتشبثت بالمكان الذى تسعد
فيه فئة من الفلاحين ؟

وفى الدور شاهدت مثال الحياة التى يجب أن تمنح

للفلاح ، وأفن ما راعنى صوت القرويات المرح ، يملأ
المكان جمالا وحياة !

سألت كلا منهن على حدة : أسعيدات أنتن ! فكان
جوابهن الواحد : وهل فى ذلك شك ؟ ثم تتجه كل منهن
إلى السماء بقلبها ، تسأل الله للمنقذ النبيل سعادة وتوفيقاً ،
وأحاطت بى الصديقات مودعات ، يسألننى متى تكون
العودة ، قلت : قريباً إن شاء الله ، أقرب مما تتوهمن !
أفتحسبن أنى أجلد للفراق طويلاً ؟

وتطلعت ورأى أسائل النفس : هل يمكن أن أنسى
اللحظات السعيدة التى قضيتها فى عزبة بهيم ؟ هل يقوى
الزمان على طرحها فى زوايا النسيان ؟ وهتف بى قلبى أن
اطمئنى ، فلن تنسى مادمت أنبض فيك !

وخلفت العزبة ورأى ، واعتمدت رأسى بين يدي وأنا
أجتر الجمال الذى وعيته هناك فى ذهول حالم ! بينما كانت
رائحة المانجو التى أتخفتنى بها الأخت الكريمة « السيدة
هانم » تملأ أنفى ودماعى ! وبينما كانت زهرة الفل المرتعشة
فى يدى الداهلة ، توحى إلى أتنى لا زلت فى جنة الريف !

موسوليني الفارع

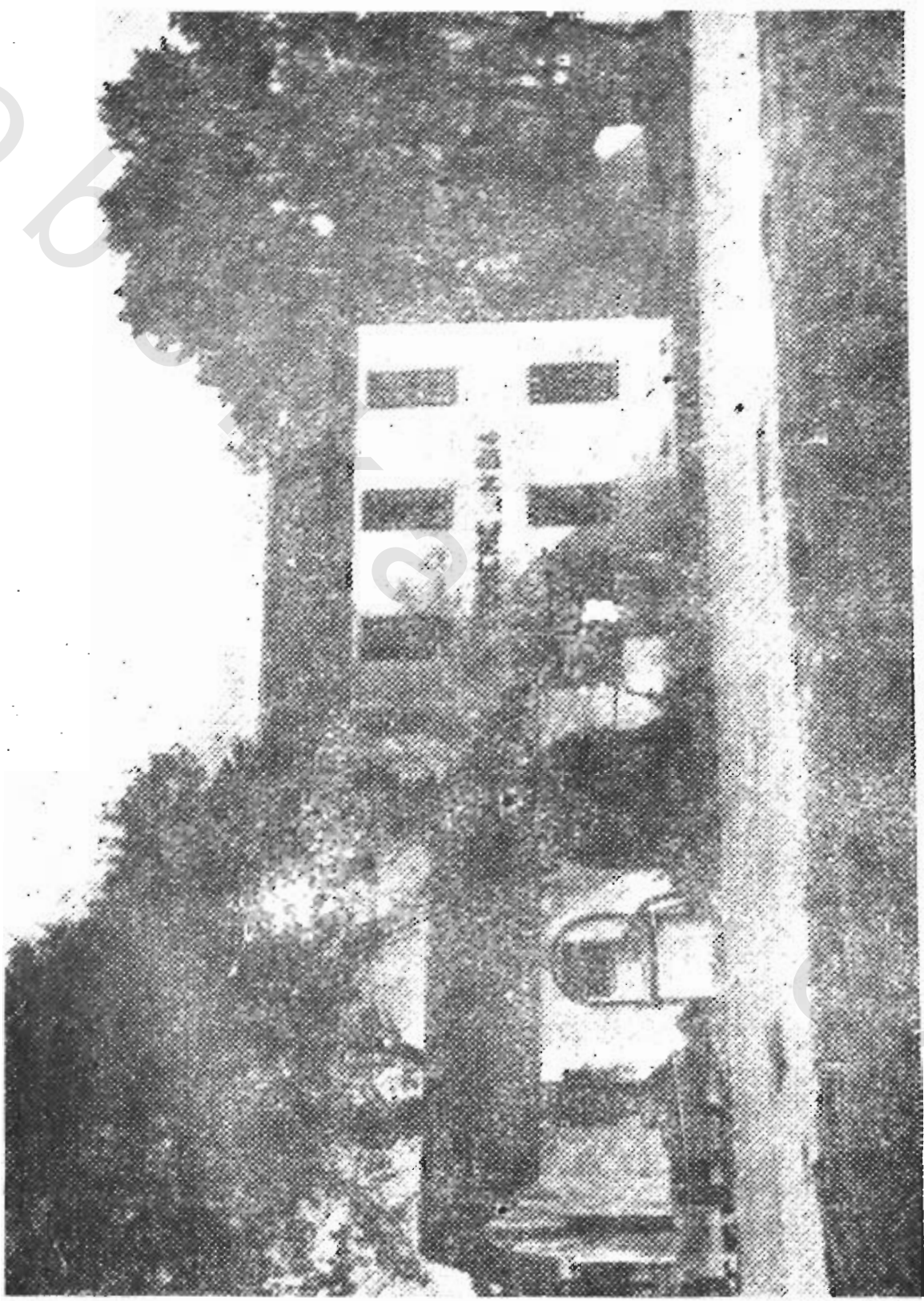
فى قسوة الظهيرة من شهر يونية ، حيث السماء تقذف
الأرض بالنار ، وحيث الهاجرة تغلى الدم وتصهر العظم ،
وقد احتفى الناس بالجدران من قسوة الطبيعة ولاذوا
بالبیوت فراراً من اللهب ، وقف الفلاح وسط الحقل ، عارى
الجسم إلا بما يستر العورة ، وعلى رأسه قبعة كبيرة من
الخوص ، يود لو تحميه من أشعة الشمس المحرقة ، وقد سال
عرقه فاختلط بالقمح الذى يحصده ! وكلما أنهكه التعب
وأدركه الإعياء ، ألقى نظرة على العمل الذى ينتظره بين يديه ،
وعلى الحقول الواسعة المترامية الأطراف تنتظر آلاف من
المزارعين أمثاله ، يشقون طول العام فى انتظار موسم الحصاد ،
وتساءل : ترى هل يشعر السادة المنعمون بالثمن الفادح
الذى يدفعه الفلاح فى إعداد طعامهم الفخم ؟ ترى كيف
يكون المصير لو مضى الزملاء يلتمسون الراحة ويحتمون
بالجدران ؟ ولا يصل به التفكير إلى هذا الحد حتى يشعر

في ساعديه بقوة جديدة تطلب العمل ، وفي قلبه بنشاط
يصرفه عن التفكير في القصور وما تخفى جذرائها من
راحة ونعيم ! وربما حانت منه التفاتة إلى جاره الفلاح ،
فيرى أن ما قد حصده زميله أكثر مما حصده هو ، فتشور
في نفسه حمية أقوى ، ويظل في العمل المرهق إلى أن يدركه
المساء ، فيتراخى جسمه يطلب الراحة بعد الجهاد الطويل
الشاق .

من الرجل ؟

إنه موسوليني ، زعيم إيطاليا وحاكمها الدكتاتور ؟
انسوا لحظة شخصية الجبار الذي قال عنه السير صموئيل
هور وزير خارجية إنجلترا ، إنه ينبغي الانتقام من الأحباش ،
لأنهم لم يقدموا بلادهم هدية لجشعه الاستعماري ، وانسوا
لحظة شخصية المستبد الذي يقذف بمعارضيه في مستعمرات
بلادهم بعيدا عنه ، واذكروا في تلك اللحظة التي نكاد نسمع
فيها دوى المدافع ، موسوليني الفلاح !

لقد أراد موسوليني أن يرقب حال الفلاح الإيطالي
عن كذب ، ليقرر بشأنها ما يراه ، فاتخذ لذلك طريقا أشبه



منزل مزارع بمنطقة الاصمراع في إيطاليا

بطرق المربين ، الذين لا يدرسون طبائع الأطفال مثلاً ،
إلا إذا نزلوا إلى مستوى تفكير الأطفال ؛ وفي شجاعة جريئة
خلع ثيابه المثقلة بالأوسمة والنياشين ، وأمسك بالمنجل
والفأس ؛ وبحث الإيطاليون عن زعيمهم ، ليؤيدوه بهتافهم
ضد انكلترا واليابان في ثورتهم على سياسته الاستعمارية
الفاضحة الكفيلة بتقويض الاستعمار كله ، فإذا بهذا الزعيم
وسط الحقول ؛ يحصد القمح عارى الجسم تحت لهب شمس
الصيف المحرقة ، ووسط فئة من الفلاحين المنبوذين ؛
هل قرأتم خطبة المصلح الاقتصادي فؤاد أباطه بك
عن حركة الإصلاح الزراعي في إيطاليا ؟ إذا كنتم قد
دهشتم لهذه النهضة الحاسمة العاجلة ، فاذكروا أن موسوليني
وضع خطة الإصلاح في الحقل ، فبينما كان يمسك بالمنجل
ويحصد القمح ، كانت عيناه تدرسان حال الفلاح وشقاه ،
وكان رأسه يدبر المشروعات ويرسم الخطط ، بعيداً عن
المكتب النعجم ؛ وما أحسب أن نابليون يضح في قبره
إذا استعرت عبارته المشهورة ، وقلت : « إن موسوليني
الذي يمسك بالفأس في يمينه ، يمسك بمصير العالم في تلك
الآونة العصيبة في يساره ! »

وإيطاليا ليست بلاداً زراعية ، ولا تعتمد على الزراعة في ثروتها العامة ، فالأقاليم الزراعية فيها لا تعدو حوض نهر البو حيث يستمد النهر ماءه من الأمطار شتاءً ومن الثلوج الألبية الذائبة صيفاً ، وحوض نهر أرنو وحول خليج نابولي ، ومحصولاتها الزراعية تنحصر في القمح والتوت والكروم والزيتون ، وفيما عدا ذلك ، فإيطاليا بلد صناعي تجاري ، ولكن من أفرادها آلافا يشتغلون بالزراعة ، وهم أعضاء من جسم الأمة ، يؤدون واجباتهم نحوها ، فلهم أن ينالوا حقهم من الإصلاح ، وراح موسوليني يدرس حالهم عن كثب ، بل تواضع واختلط بهم وقاسى مشقة عملهم ، فثارت نفسه كزعيم أمة مسئول عن توفير الراحة لكل فرد من أفرادها ، واستطاع أن يغمر الزراعة والمزارعين بفيض من الإصلاح العجيب !

والآن إلى مصر !

مصر البلد الزراعي المحض ، الذي قال عنه سعادة كامل إبراهيم بك وزير الزراعة « مصر بلاد زراعية ،

بل هي من أصلح أقطار العالم للزراعة بما وهبها الله من تربة خصبة ومناخ صالح ، وبما وهب فلاحها من صبر على العمل وقناعة في المطالب ، والزراعة في بلادنا ما تزال هي المنبع الأول للثروة »

ظل الفلاح المصرى قروناً عدة يرسف في أغلال البؤس والعوز والشقاء ، وكانت تتصاعد بين حين وآخر صرخات بعض الأفراد ، تهيب بالحكومة أن تيسر للفلاح الشقى المجاهد ، حياة ممكنة ، وهذه الصرخات تحدث صدى خافتاً لا يلبث أن تتلاشى ، وأخيراً ثأبت الحكومة بعد نوم طويل عميق ، نعمت فيه الحكومات السابقة بأحلام ذهبية لا صلة بينها وبين فئة الفلاحين التعساء ، فألفت لجنة التعديل الضرائب !

نفهم أن يتفضل أعضاء اللجنة بزيارة القرى ، ولكن كيف يلبسون شقاء الفلاح وهم في طريقهم إلى كفر المصلحة وميت خلف ، يركبون السيارات الفخمة ويحيط بهم الموظفون المنعمون على حساب الفلاح المنكوب ؟ إن موسولينى رجل عصامى ، بنى مجده بيديه ، وذاق

في طفولته ألواناً من الشقاء المرير ، وإذن فما كان أغناه
عن التجربة القاسية ، تجربة الفلاحة والحصاد ، وله من
حياته السابقة مقياس يفهم به درجة شقاء الفلاح ! ولكنه
أدرك أن إصلاح حال الفلاح لا يمكن تمهيداً وإعداداً بين
المقاعد الوثيرة ، وعلى الموائد الفخمة ، وأن كل إصلاح
يأتى عن هذا الطريق هو نوع من الزيف والرياء !

هى جرأة منى أن أطلب إلى كبارنا زيارة للريف ؟
ما دام حسن النية متوفراً فلا بأس من الجهر بطايب الجرىء
المتواضع !

حين يشرف السادة أرض القرية لن أتصنع الجنون
وأطلب إليهم أن ينزعوا ثيابهم الأنيقة ويمسكوا بالفأس
ويشتغلوا فى الحقل ساعة ، كما فعل زعيم إيطاليا ! ولكنى أرجو
أن تكون زيارتهم مجهولة المقصد والموعود ، حتى لا يحتشد
السادة الموظفون المنعمون فى استقبالهم ، وينشئوا بأناقتهم
وترفهم ستاراً زائفاً أمام أعينهم ، يحجب عنهم رؤية شقاء
الفلاحين التعساء .

وستستقبلهم إذن جموع حاشدة من الأطفال ، حفاة

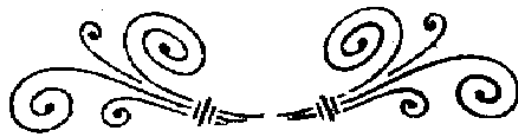
الأقدام عراة الأجسام إلا من ثياب مهلهلة لا تكاد تستر العورة ، وسيحملقون في الضيوف الكرام بأعين ذاهلة لم تعود رؤية ذلك النعيم ، فسادتنا حكام الأقاليم يحرصون دائماً عند زيارة العظماء لأقاليمهم ألا تشهد عيونهم تلك الأجسام الريفية الخشنة القدرة ، وألا يلوثوا معدات الاستقبال الفخم ، بتلك المخلوقات التعسة التي تبدو كأنما هي غريبة عن البشر !

ويسرى الخبر في القرية فيجتمع الفلاحون على رؤوس حقولهم ، وقد حمل كل منهم فأسه أو أمسك بزمام دابته ، وضم ثيابه على كمية من الأمراض ، يطالعون السادة بوجوههم الصفراء وأجسامهم القدرة المهدامة وبؤسهم البادى الأليم .

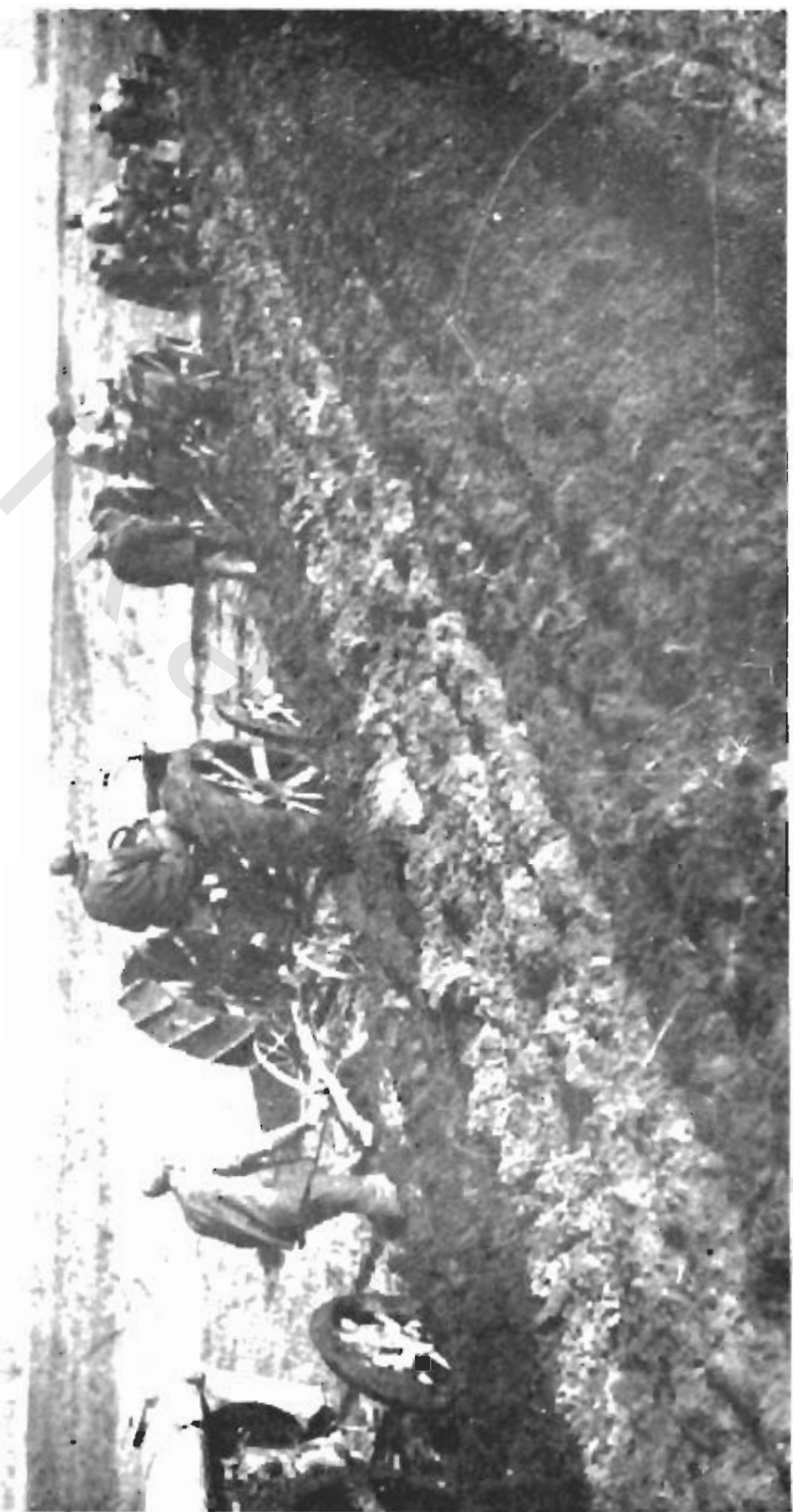
وحين يدرك التعب حضرات الزائرين ، أرجوا ألا يمنحوا شرف ضيافتهم للعمدة وحده ، فحضرتة قد يكون في غنى عن هذا الشرف بشرف عمديته ، وإنما ألتمس أن يدخلوا أى دار من دور القرية ، ليزوا عن كذب كيف يحيا أخونا الفلاح وكيف يأكل وكيف ينام !

وفي فناء الدار بجانب حظيرة البهائم وأمام الفرن

وأكداس الخطب والغاب ، يجب أن توضح خطة
الإصلاح للقرويين ، الذين يحترقون ليضيئوا للناس وما
أحسب حضرات المسئولين في حاجة إلى أن أنبههم إلى
أن الفلاح مهما طال زمن إضاءته ، فلا بد أن يحترق إذا لم
نمده بعوامل الحياة ، ولنا الله يوم يحترق ويتركنا نتخبط
في ظلمات المجاعة والشقاء .



مرث الارضه بالادلات المبطنيه في ايطاليا



والله .. هل يسمع المصربونه ؟

أرأيتم ذلك الشاب البريء الممتلئ بالحياة، يحكم عليه بالإعدام فينتظر الموت يسير إليه ببطء ولكن بالتأكيد، ويموت في كل لحظة من هول التفكير في الغد وعذاب الانتظار ؟ لقد رأيت ذلك بعيني ، وكنت أسير مع صديقتي القروية بجوار حديقة ليمون في القرية - ولحداائق الليمون في المنوفية سحر عجيب - فامتلاً أنفي برائحته النفاذة العطرة ، وأحسست بنشوة ذاهلة أغمضت لها عيني وأنا أستنشق الشذا في شهوة ونهم ، ثم تملكتنى رغبة جامحة في أن أعمل لرأسي تاجاً من الزهيرات البيضاء !

وقلت لصديقتي : اسمعي ، هذه رغبة لا أقاومها ، سمها ما شئت ، واختاري لها ما يحلو لك من أسماء ... ولكن يجب تحقيقها !

وتقدمت أتغلغل بين الأشجار المحملة بالأزهار والأثمار
وتقدمتني صاحب الحديقة باسم مرحباً ، فالتقيت عليه

نظرة عجلى ، ارتد إلى طرفى بعدها دامعا محزوننا .
كانت عيناه مثل كرتين صغيرتين من شدة الورم ،
وقد سال منهما صديد أزرق لوث وجنتيه الشاحبتين ،
وبدا على المسكين كأنه يعانى مجهودا هائلا ، ويستنجد بما
بقى له من قوة إبصار ضئيلة مولية ، كى ينظر إلينا ، ويرينا
فى عينيه كرم الفلاح المصرى النليل ! كان يتسم لنا ، ولكنهما
ابتسامة باهتة ، أبلغ فى الدلالة على الألم من الثورة ومن
البكاء . لقد جثمت كتلة لحمية منكورة فوق عينيه ، ولم يبق
له إلا شق ضيق ينظر به نظرات الوداع ، وقد تعتريه نوبة
إفراز الصديد فلا يرى شيئا !

وحدثته ، فأيقنت أنه يعرف مصيره المحزن ، وهو
لذلك يود لو يقضى كل ما بقى له من وقت قبل أن يصير
أعمى ، فى النظر إلى زوجه وأطفاله ، وفى التهام جمال حديقته
التي ارتوت بعرقه ودمائه وقوته ، وهو يرى الزمن يلتهم فى
جوفه تلك الأيام القليلة الباقية ، وعمما قليل يسدل على عينيه
ستار أسود حالك السواد ، لا يتزحزح ولا يريم ، ولا
تجرى عليه سنة التطور والفناء مادام حيا ، وسوف يحجب
عنه رؤية أطفاله وهم قطع من قلبه وكبده ، ومشاهدة زوجه

البارة التي قاسمته حلو العيش ومره سنوات طوالا ، ثم
ينكمش ذلك الفضاء السافر الرحب ، حتى يتلاشى ويكتنفه
السواد !

وقلت ما يردده رجال مصلحة الصحة : ما عذرك
والبلاد يحتلها جيش من أطباء الرمد ؟ وفيم السكوت
والمستشفيات تملأ المدن ، وتقدم إليك العلاج مجانا ، وترد
إليك بمشيئة الله نور البصر ونور الحياة ؟ فأجاب وهو
يبتسم ابتسامته الحزينة : لا طيب في القرية ، وحتى لو وجد
فلا طاقة لي بأجره و ثمن ما يصف لي من دواء ، أما
المستشفيات ، فإن أستطيع أن أترك أطفالي وزوجي ؟
وأين أعيش في بنها ؟ وأنى لي ثمن طعامي وأجر مسكني
إنى أفوض أمري لله ! عليه توكلت وإليه أنيب .

وكما يجتمع أشتات الجند حين ينطلق في المعسكر صوت
صفارة القائد ، اجتمعت في دماغى من أغوار سحيقة ،
أشتات أفكار مبعثرة ، لم يكن ثم سبيل إلى تجمعها وترابطها
لو لم ينطلق فى رأسى صوت الرجل .

فلمصلحة الصحة جهود موفقة فى خدمة الصحة ، ولكن

هذا التوفيق لا يمنع من الاعتراف بأنها جهود محدودة النتائج ، لأنها قامت على سياسة خاطئة ، فالمستشفيات كثيرة في المدن ، حيث الطرق مرصوفة يسهر على نظافتها عمال مصلحة التنظيم والمجالس البلدية والمحلية ، وحيث المياه نظيفة مرشحة موفرة ، وحيث أحقر المساكن يعتبر قصرا بجانب أبنية القرى ، وما أحسب أن في هذا مجالا واسعا لانتشار الأمراض المتوطنة ، وإن وجد فما أحسبه بالخطورة التي هو عليها في القرى .

يقينا إن المدن بحاجة إلى المستشفيات ، ولكن أما أن لنا أن نهتم بالقرية وهي أشد من المدينة عوزا ، وأحوج منها إلى الرعاية ؟ وأعرف أن مصلحة الصحة يرضيها ويقنعها كثرة المقبلين على مستشفيات المدن من القرويين ، ولكنه عدد محدود نسبيا ، استطاع أن يضحى بأرزاقه في سبيل الصحة ، بينما الأغلبية الساحقة من القرويين ، لا تبارح القرية مهما برح بها الداء ، وإلا فهل يفرون من المرض إلى الجوع ؟ إن القول بأن الصحة سبيل الكسب فيجب توضيحه في سبيلها ، فلسفة تصلح لملء الكتب والنشرات الصحية ، ولكن عقول الفلاحين الساذجة ،

لا تستطيع هضم هذه النصائح السلبية العميقة .
وأعرف أيضا أن المصلحة تود لو أتيح لها تعميم
المستشفيات في القرى ، ولكن إذا كانت تلك رغبة صادقة ،
فإبال المصلحة جادة في إنشاء المستشفيات بالمدن العامرة
بها حتى لتكاد تصيها التخمة ؟ إننى أرى - والرؤية أهم من
مجرد المعرفة - أنه بينما يقام في القاهرة مثلا ، مستشفى فؤاد
الأول ، وكان يغنى عنه مؤقتا مستشفى القصر العيني ،
والرمد بالجيزة ، والحميات بالعباسية ، والملك بالمنيرة ،
والأمراض الصدرية بالمنيرة أيضا ، والبلهارسيا
والانكلستوما والكلب بفم الخليج ، وبينما يقام مستشفى
الولادة بالإسعاف ، بجانب عشرات مراكز رعاية الطفل ،
بينما يقام هذا وذاك ، لا يبذل جزء من ألف من هذا المجهود ،
في القرى المفلسة ، التى يقابل هذه المستشفيات عندها
أنواع شتى من الأمراض ... الرمد والبلاجرا ، وفقر
الدم ، والبلهارسيا والانكلستوما ، والملاريا ؛ كما يقابل
مراكز رعاية الطفل ، ومستشفى الولادة ؛ حلاق الصحة
والقابلات الجاهلات .

إن تلك المنشآت جديرة بالتقدير والإعجاب ، ولكن

كان يجب أن يسبقها إنشاء مستشفيات متواضعة - ولو في
خيام - في القرى . والنفقات الباهظة التي تبذلها الحكومة
بسببها في بناء مستشفى بالقاهرة ، يكفي لإيقاظ قرى مديرية
بأسرها ، ولست عدوة مثل هذا التجديد ، سيما في عاصمة
البلاد ، ولكن ليس مما يشرف الحكومة ولا سمعة المصلحة ،
أن تشيد أنخم المباني في المدن حيث يمكن الاستغناء عنها
مؤقتا - وتضمن ببضعة جنيهات على كل قرية ، لإنشاء مستشفى
متواضع ينقذ آلاف الأيدي العاملة والأجسام المريضة
القادرة على خدمتنا .

وحسبك داء أن تبیت بیطنة * و حولك أكباد تحن إلى القد .

كلما ذكرت أن مشروعى الطبيين المصلحين ،
عبدالواحد الوكيل وشاهين باشا فى إصلاح القرى ، لا يزالان
يتمتعان بالنوم العميق فى مكاتب المصلحة ، ظهر لى ضالة
الأثر الذى قد تحدثه كلمات فتاة نكرة مثلى - لا فى العير
ولا فى النفير - ولولا بقية من الصبر يتماسك بها الصدر

وشىء من الأمل يتعلل به القلب ، لحطمت قلبي واحترقت
في صمت !

ولكن ألا يعزينا أن نعلم أن لجنة إصلاح مياه القرى ،
التي يرأسها سعادة وكيل الداخلية للشئون الصحية ، تفكر
جديا في المسألة ، وأن المشروع قد اعتمد له مليونان من
الجنيهات في خمس سنوات ؟ ترى هل تحقق الحلم وكان
لصرخاتنا صدى ، لعل وعسى !

فلنرغب عن كשב ما ستفعله اللجنة ، وإلى أن يتم لها
إنقاذ القرويين من الماء الملوث ، يحجب ألا ننسى ضرورة
التعجيل بإنشاء المستشفيات في القرى ، وردم البرك ،
وإصلاح المساكن ، ولمصلحة الصحة في هذا كله الكلمة
الحاسمة ، فهي المسئولة أمام الله والوطن والتاريخ ، عن
حياة ٩١٥ ر ٢١٣ من المزارعين - الإحصاء الزراعي
الآخر - وما يقرب من مليون من القرويين غير المزارعين ،
في أمة يبلغ عددها خمسة عشر مليونا ، ومن حقهم أن يعيشوا
وألا يبلغ بهم الشقاء إلى الدرجة المحزنة ، التي وصفها
الدكتور محمود عزمى القطان بقوله : « الماء الجارى ،
والصابون ، والبشكير ، الذي لا يعد شيئا في نظر الخاصة

هو الترف بعينه عند الملايين من مواطنينا الفقراء! »

والآن إلى وزارة الزراعة ...

ما نصيبها من المسئولية ؟

لأ كاد أفكر في هذا حتى تبدولى حقائق تدفع اللوم عن وزارة الزراعة في حرارة وإخلاص ... فهي رغم كونها المشرفة على ثروة الأمة ، لاتنال من الميزانية إلا ٦٥٧ر٧٤٢ جنيها وهذا لا يزيد عن ٣٥ر٢٪ من مجموع مصروفات الدولة . ويدخل في هذا الرقم التافه إيجار المزارع التي تؤجرها الوزارة ، وغير ذلك من أبواب المصروفات .

ولكنها رغم هذا المبلغ الضئيل تجاهد جهاداً ظاهراً في محاربة الجراد والدودة وخدمة الزراع ، ولها في الريف موظفون هم أكثر موظفي الدولة اتصالاً بالزراع .

ولكن رغم هذا كله ، فالفلاحون لا يزالون كما كانوا يهيمون في شقاء أليم ، وهم باعتراف سعادة كامل بك ابراهيم وزير الزراعة « أكثر الطبقات تأثراً بالأزمة ، لأنهم يضطرون إلى الاستدانة ، ويعجزون في أغلب الأحيان

عن أداء ديونهم وفوائدها الفادحة ، وهم بعد هذا كله ،
آخر من يتخلصون من أثقال الأزمة وأضرارها . »

وفي هذا الشقاء المخيم على القرى ، دليل على أن أثر
الإصلاح لا يتناسب مع فداحة مجهود وزارة الزراعة ،
ويقينى أن هذا يرجع إلى أن العلاج بنى على تشخيص
خاطئ ، للمرص ، فالوزارة حين تصدر عدة مطبوعات ،
وصوراً رمزية للإرشاد ، تنسى أن القرويين جميعاً أميون ،
وأن تلك الصور الرمزية تحتاج إلى مستوى راق من الفهم
لا يتوفر حتى للعدد المحدود من القرويين ، الذين تعلموا
مبادئ القراءة والكتابة ، وتجهل أن الرأى فى الريف
المصرى لا يزال عند الاعتقاد بأن (فك الخط) هو العلم
الغزير !

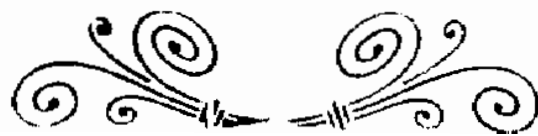
والوزارة حين تعتمد إلى المذيع والخيالة والصحف
لتبليغ رسالتها الإرشادية ، تنسى أن القرى على الإطلاق
لا تعرف من هذا الترف السكالى إلا اسمه وما يحيط به
من خيال مغر !

أما الموظفون الذين تعتمد عليهم الوزارة فى الإرشاد ،
فيجب أن نتركهم لتنفيذ القوانين وجمع الإحصائيات

وتحرير محاضر المخالفات ، ومن الإرهاق لهم أن نطالبهم
بإرشاد الفلاح ، ومن الحق منا أن نطلب إلى الفلاح
الوثوق بهم والركون إليهم ، وهو يراهم أداة إرهاب في
يد السلطة الحاكمة !

على أن مهمة وزارة الزراعة لا يجب أن تقف عند
حد الإرشاد ، فواجبها الأول ترقية حال الفلاح الذي
هو المنبع الأول لخزانة الدولة ، إن الضرائب الفادحة التي
تبلغ ١٧٠ قرشاً عن الفدان الواحد في بعض الجهات
— المنوفية مثلاً — والتي تفرضها الوزارة على المخلوق
التعس الذي لا يكاد يجد ما يتبلغ به ، هذه الضرائب ليس
من الحق ولا من العدل بقاؤها ، فالفلاح المثقل السكاهل
بها ، هو آخر من يستفيد منها ، ألا ولتذكر الوزارة أن
إرهاق الفلاح بضرائب لا يستفيد منها شيئاً ، ولا تحتملها
ميزانيته المحدودة ، وقسوة بعض محصيليها في تنفيذ القوانين
الزراعية ، يدفعان بالفلاح إلى أيدي المرايين (وبنوك
الرهونات) يعتصران دمه وقواه ، ويتركانه بعد ذلك كتلة
ذليلة يغمرها عار الفقر والإفلاس ، وهو الذي يعمل
ويعمل حتى تخور قواه !

إن إعلانات البيوع الجبرية ، التى تحتل أكبر مكان
من الصحف الأهلية والصحيفة الرسمية ، دليل على تقصير
الدولة فى حماية مواطنينا التعساء ، وإرهاقها إياهم إلى الحد
الذى تباع فيه مواشيهم ودورهم ، وتنزع اللقمة من
أفواههم ، فمتى يتحرر الفلاح من كابوس الشقاء الجاثم
على صدره يخنقه حتى ليكاد لا يسمح له باستنشاق الهواء ؟



مقائى عجبىة

سألتها فى ضراعة وابتهاى أن تصحبنى فى جولة قصيرة ،
فى أنحاء القرية المتشحة بالسواد ، وكان سكون القرية فى
تلك الأمسية الحزينة يغربنى بالخروج ، ولو حرمت صديقتى
القروية من ساعة تعودت أن تستريح فيها وتخرج بالنوم
أثناءها من عالم الشقاء والأحزان ، كما قال شاعرنا أبو العلاء :
وفضيلة النوم الخروج بأهله

عن عالم هو بالأذى مجبول .

وكانت صديقتى نبياة حين تلفعت بخمارها وتبعتنى فى
صمت ثائر عجيب . وقال أبوها الشيخ : سأخرج معكما
ولكن إلى أين ؟ قلت إلى حيث تقودنا أقدامنا ، ترى كم
يخفى هذا الظلام من شقاء ؟ وكم من نفس تبیت فيه على
الطوى ! ؟ فرددت الفتاة : أنا أفهمك . وصمت لحظة ثم
قالت : ما أشقانا بحنانك ! كان لنا أن ننعى بقربك طويلا
لو لم تثر شفقتك علينا ، ولو لم ينسك شقاؤنا جمال الريف .

وسرنا كأشباح تذررت بأثواب الظلام ، ولم نتحدث
طويلا ، شغل كل منا عن الآخرين بأفكاره ! ولعل الشيخ
كان يفكر في دودة القطن تحتل في تلك اللحظة ضيافة
كارهة من حقله ، وتأتى في نهم على ثروته وثمره جهاده ،
ولعل الفتاة كانت تفكر في الأيام السعيدة التي قضتها في
ضيافتي ببلدتي الشاطئية الساحرة . أما أنا ففيم كنت أفكر ؟
لا أذكر بالتحديد فقد اعترتني ليلتئذ غيوبة ذاهلة .

بدا المكان صامتا في غير وحشة ، وخلا من كل صوت
إلا من همسات خافتة لاهثة كأنها أنفاس الملائكة أو حركات
أشباح غير منظورة تحتل المكان الوادع الجميل ، وكانت أمسية
فاترة تغرى بالجنول ، بينما وقفت أشجار السرو والجميز
الضخمة المعمرة كأشباح ، تئن في صوت هامس ويلمسها
الهواء فترتعش وتهتز ، ثم تتساقط أوراقها الذابلة الصفراء
على الأرض الداكنة في صوت مختنق أجش كأنه حشرة
الموت .

وأدهشني أن أجد جمعا من صديقاتي القرويات ،
يملأن المكان حولي ويفدن من كل حذب وصوب ، وعلا

ضحكهم المرح في الفضاء الساكن ، وبدأت في عيونهم رغبة
مخلصة صادقة في إشعاري بالراحة والاستمتاع .
وكان نقيق الضفادع يبعث في القرية الساكنة نوعاً من
الحياة المجردة ، فجعل منها مرح الفتيات حياة مريحة ، فيها
قوة وفيها شباب !

ولم يكذب الشيخ حين أكد لي أن وراء ثياب القرويين
البالية المهلهلة ، نفوساً كريمة عفة ، وأن في الأبنية القروية
الحقيرة قلوباً رحبة نبيلة ، تسكن في الهياكل الشاحبة
المريضة ، فما مررنا بدار إلا وألح أهلوها في إضافتنا لتناول
العشاء وقدح القهوة ، ولم يكن ينجينا من إلحاحهم وتشبثهم
أيماننا المغلظة بأننا تعشيننا والحمد لله ، وأن معدة الفرد منا
لا تسع عشرات « أقداح القهوة » وكان كل قروي يقول :
« شرفونا ياسادة ، الخير كثير والحمد لله » كم وددت لو أن لي
طاقة على تحمل ضيافتهم كلهم ، حتى لا يذلهم على بعوزهم
وفقرهم !

فيم المرح ؟
لم أجروا على الجهر بسؤال وتعكير صفو صديقتي

وهن يبعثن في حواشي الليل ، بأغانيهن المرححة الفتية ، روعة
تنسى الإنسان ما هن فيه من بؤس . وحاولت ان أندمج
معهن في أفراحهن وأشترك في الغناء الريفي الساذج . فأقعدني
عن ذلك عمق شعوري بعوزهن ، كنت أعلم يقينا أن إحداهن
تركت دارها وما فيها شيء يؤكل . وشاهدت أخرى متخفية
في بنها تبيع أقراصا للوقود صنعتها من روث البهائم ، بينما
لمحت ثالثة تسطو على لقيحات قدرة وضعت في حظيرة
المواشي بأحد الحقول ، وتمسحها بطرف ثوبها ثم تلتهمها
في شهوة عجيبة ، فكيف لمن هذا الصوت الحنون ينطلق
داويا رنانا في سكون الليل البهيم ؟ وهمست في أذن والد
صديقتي أسأله إنقاذي من حيرتي ، فلمعت عيناه ببريق الحزن
وقال :

يظهر يا ابنتي أنكم في المدن ان تلمسوا حقيقة ما نحن
فيه من بؤس مستبد ، إلا إذا متنا جوعا وتراكمت جثثنا
بجانب حقولنا ، وإلا فما دمنا نتحرك ونجىء ونروح ،
فالفلاحون بخير ، وفيهم القوة على تعمير الخزانة وإنتاج
الخيرات . للكثيرين منكم آراء عجيبة لا تجوز في غير
مصر . لقد شاهدت بعيني جميع الكبراء يسرون في

جنازة المغفور له عدلى يكن باشا كما اجتمعوا فى تشييع كل كبير من قبل ، وكما سيجتمعون من بعد ! رأيتهم يتحدثون ويتصافحون فنسيت الأقدار التى تلوث بعض الصحف السياسية ، والفضائح التى تكال جرافا لكبار المصريين . وتساءلت لم لا يتحدون هكذا فى إنقاذ مصر ؟ ولم لا تتفق كلمتهم على الإصلاح ؟

قلت وقد أخذتني فلسفته الرائعة : ذلك حق يا أبى ! قال وهو يتأمل : والفلاح يا ابنتى ؟ أؤكد لك أنهم لن يشعروا بحاجته إلى الإنقاذ العاجل إلا إذا مات الفلاحون جوعا . إن شقاءنا ليس وليد اليوم ولكنها وراثه مثقلة يتوارثها الحكماء منذ آلاف السنين ، لقد لمست بيدك نوع الشقاء الذى نهيم فيه ، ومع هذا تخدعك ابتسامه هؤلاء الفتيات ويغرك مرحهن فتتساءلين فيم المرح ؟ ولو كنت ريفية صميمة لأدركت مثلى أن وراء هذا الضحك نفوسا شقية تجتر آلامها ، ويهد الجوع والمرض كيانها هذا . إنها رحمة الله يا ابنتى ، تنزل فى قلوبهن ساعة يجتمعن حول الضيف ، فتنسيهن إلى لحظة قصيرة ثورة الجوع ومرارة العيش ! إنه الصبر يا ابنتى ، تعودناه منذ تفتحت عيوننا على القرية المهملة

المتروكة ، ولولا ذلك لهدمنا العوز والحزن ، ومن لم يهدمه الحزن انتحر يديه !

قلت : إني لأعرف يا أبنى أى بؤس تهيمون فيه .
إن أجسامكم المنهوكة تعمل فى الحقل وتعمل فيها الأمراض ،
ولهذا أسالك السر فى تحمل أجسامكم . قال : الصلاة يا ابنتى
وعزاء الايمان والتسليم لما كتب علينا ، والنوم المبكر
والاستيقاظ المبكر ، وشىء من القوة تمدنا به الشمس والهواء ،
والحياة العائلية الفطرية التى يتعاون كل فرد فيها مع الآخرين
فى تسهيل مشاق العيش ، ولولا ذلك يا ابنتى لما كان هناك
عيش أو كان ثم بقاء .

وسكت الشيخ ، فأطرقت فى ذهول أصغى إلى نغمات
صوته الحزين ، تتجاوب فى صدرى وقلبي حافلة باللوعة
والأنين . وزميلاتى المخدوعات يحسبن أننى أصغى إلى
أصواتهن الحافلة بالجمال والفتون !

أنحسبون الفلاح الشيخ مبالغاً؟ إذا فأنصتوا إلى الحقيقة
يعترف بها الدكتور أحمد حسين مفتش قسم التعاون فيقول
« إن الزراع المصريين - وغالبيتهم العظمى من صغار
الملاك - يعيشون عيشة لا تليق بشعب ناهض راغب فى

التقدم . وذلك رغم ظروفهم المواتية من جو معتدل ،
وتربة خصبة ، هذا إلى جلدتهم في العمل ، وقناعتهم باليسير
من مطالب الحياة »

لقد بلغت ضرائب الأطنان والقطن في سنة ١٩٣٣
ستة ملايين من الجنيهات الإقليلا ، فإذا أضفنا إليهما ما يقرب
من ستة ملايين أخرى ، وهي ما تكسبه الدولة من الفلاحين
بطريقة غير مباشرة في الرسوم الجمركية لغير الدخان البالغة
٤٧٢ ر ٢٧٤ ر ٧ جنيهاً مصرياً ، ورسوم الحفر البالغة مليوناً
ونصف مليون من الجنيهات ، كان مجموع ما يدفعه الفلاحون
اثني عشر مليوناً من الجنيهات ، وذلك من جملة إيرادات الدولة
التي بلغت ٣٧١ ٣٩٨٨١ جنيهاً مصرياً ، في ذلك العام ، وهذا
يقرب من ثلث إيراد الدولة ، فقيم إهمالنا للزراعة ،
واحتقارنا للزارعين ؟ أفيحسب البعض أن في استطاعة
مصر الاستغناء عن ثلث إيراد الدولة ، وعن قمح الفلاح
وقطن الفلاح وجهاد الفلاح ؟

كل ما أرجوه هو ألا يخذعنا تحمل الفلاح آلافاً من
السنين ، فقد يتحمل سنوات أخرى ، ولكنني أعتقد أن

قوة التحمل فيه قد تلاشت ، وأن الصبر على شقائه لم يعد
مستطاعاً ؟ وإذا ظننا غير ذلك فويل لنا منا ، فنحن نقتل
أنفسنا بأيدينا .

إن المسائل الزراعية تحتل مكاناً ظاهراً من اهتمام
المسؤولين ، ولكننا تعودنا أن نهتم بها على حساب الفلاح
المسكين ، وقد حان الوقت لنفهم أن إنماء ثروتنا الزراعية
إن يكون عن غير طريق إصلاح القرية .



فتياتنا والتعالم الزراعى

فى كثير من المراترة والألم ، قرأت خبر رفض قبول الفتيات فى كلية الزراعة ، وأذهلنى أن يحال بينهن وبين المدرسة الوحيدة التى تحتم ظروفنا وبيئتنا الزراعية وجوب قبولهن فيها .

وفى الحقيقة ماذا يغرى الفتيات بهذه الكلية ؟ هل يتطلعن إلى وظائف ظفر بها زملاؤهن الطلبة ؟ أم تعجبهن الحياة الريفية التى يرشح خريجو الزراعة للمعيشة فيها ؟ أما عن مستقبل طلبة الزراعة فليس فيه ما يغرى فى مثل تلك الظروف العصيبة ، التى بلغ من قسوتها أن عين بعض حملة شهادة الزراعة العليا ، بأجر يومى كما يعين صغار العمال ، وأما عن حياة الريف فليست فى حالتها الراهنة إلا حياة قدرة أللة يغمرها العوز والشقاء والظلام ، ويبقى بعد هذين ، الميل الطبيعى وحده ، وهو الذى يدفع الفتيات إلى صرف خمس سنوات - هى خير سنى حياتهن - فى تعلم الفن

الزراعى ، وهذا الميل القوى هو أقوى عوامل النجاح ،
وهو جدير باحترامنا وتقديرنا .

والأساس الطبيعى المعقول لإنشاء المدارس هو
أن تنشأ نتيجة لحاجة الشعوب ، ولست أعرف مدرسة
في مصر تلح الضرورة فى انتساب الفتيات إليها مثل
مدارس الزراعة .

الريف المصرى محروم من الروح النسوية الرقيقة ،
تهذب خشونة الحياة فيه ، وتنير ظلامه بنور الجمال والسلام ،
وتحيل حياته القاسية الفقيرة إلى حياة فتية فيها سلوى وفيها
عزاء ، وسيظل هكذا محروماً من تلك الروح ما دامت
الفرصة لاتتاح للفتاة كى تحب الحياة الريفية البسيطة
الساذجة ، مع أنها لو درست تلك الحياة ، لأحبت القرى
والمزارع وأسرفت فى ذلك الحب ، فإن الجمال الريفى إذا
أتيح له أن يتخلص من شوائب القذارة والفقر والمرض ،
لبدا رائعاً جميلاً أخاذاً .

الفتاة المصرية تفر من الريف وتعتبر نفسها شقية تعسة
إذا قدر لها أن تحيا هناك بعيدة عن المدن الحافلة بالمغريات

وترفض الزواج من ساكن القرية مهما كان له من ظروفه
وهو هلاته ما ينسبها مرارة التضحية التي تتوهمها ، وهذه
ظاهرة خطيرة لها ما بعدها ، فما دامت الفتيات المتعلقات
يبغضن الريف ، فسوف يظل مغموراً بما يتخبط فيه من
ظلام .

تكن في الريف المصرى أسرار جمال قوى يكاد يجعله
أشبه بالجنة ، لولا هذا البؤس المظلم الذى يغمر القرى ،
 ويفرض على القرويين التعساء حياة وضاعة شقية ، ولقد
أتيح للجمعية الزراعية الملكية أن تكشف لنا عن جمال
الريف ، حين خلصت قريتها بهتيم من شوائب القذارة
والمرض الذى يغمر القرى عادة ، فبذت القرية النموذجية ،
جنة وسط المزارع والحقول ، وما أحسب الجمعية ندمت
على عشرة آلاف الجنيهات التي صرفتها فى إنشاء تلك الجنة
وحسبها أنها أنقذت مزارعيها من حياة ذليلة ، يحياها بقية
الزراع فى مصر ، وما أشك فى أن انتاجهم سيزيد ويعوض
الجمعية عما بذلته .

فلم لا نترك الفتيات يحملن الرسالة ، ويتمتعن بذلك
الجمال ؟

روعة الفن ، وسحر الطبيعة



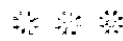
دراسة الزراعة تحبب الفتاة في الريف وتقربه إلى قلبها ، وتفتح عينيها على الجمال المتغلغل في المزارع والقرى ، وتثير في قلبها نوعاً من الرثاء للقرويين ، والرغبة المخلصة في إسعادهم ، فإن كنا لا نحترم ميل الفتيات إلى الدراسة الزراعية ، فلا أقل من أن نصل بين الفلاح الوافر الشقاء ، وبين قلب الفتاة الممتلئة رقة وحناناً ، ولا أقل من أن نمهد السبيل لمعيشة عنصر نسائي مثقف في القرى المصرية .

لو أتيح لنا أن نقوم بإحصاء شامل عن عدد الفتيات اللاتي رفضن الزواج من الموظفين في القرى ، لهالتنا النتيجة واوروعنا أن يقف جهل الفتيات بجمال الريف ، في سبيل إنشاء أسر متعلمة تبعث في الريف شيئاً من الحياة ، ولآلما أن يخسر الوطن تلك الأسر الجديدة النافعة ، كما آلم ولاية الأمور في فرنسا ، حيث لا حفظوا تلك الظاهرة الخطرة ، وهي فرار الفتيات من سكنى الريف ، وكان من المحال أن يجد المهندس الزراعي فتاة متعلمة تقبل الزواج منه ، وترضى بالحياة الريفية الجافة ، وكاد الشبان ينفرون من التعليم

الزراعى لولا أن تداركت الحكومة الأمر ، فأنشأت مدرستين زراعتين للفتيات ، إحداهما للغنيات المثقفات اللائى يردن دراسة الزراعة كفن مسل رابح ، يتعلمن فيها فلاحة البساتين وغرس الفاكهة وزراعة الخضر والتكاثر الخضرى ، وهذه الدراسة تعدهن لحياة ريفية سعيدة ، فكانت النتيجة أن غمرت القرى هناك موجة من التهذيب ، أتاحت للفلاح الشقى المجاهد حياة ممكنة ، فى المناطق التى سعدت بوجود هذه العائلات المتعلمة الحريصة على النظافة والجمال . والمدرسة الأخرى ، للقرويات اللائى يشتغلن بالزراعة ويشاركن أزواجهن فى العمل الزراعى ، فيتعلمن الطرق الصحيحة النظيفة لحلب اللبن وصناعة مستخرجات الألبان وتربية الطيور والنحل والماشية ، فيكون للفتاة من هذه الدراسة صناعة رابحة مضمونة الفائدة ، تخفف عن أسرتها عبء الفقر وقسوة الحاجة .

وما أحوجنا فى مصر إلى هذين النوعين من المدارس ، حتى نقرب بين القرية وبين الفتيات المتعلّمات ، فلا ينفرن من الحياة فيها ، وحتى تجد الفتاة القروية من دراستها عوناً لها ولأسرتها على شظف العيش وقسوته ؟

إن نساءنا القرويات جميعاً يشتغلن بالزراعة ، فلم
لأنوجهن توجيهها صالحاً ولعل في استطاعتهم إنقاذ ذويهن
من الفقر الأليم . عن طريق الصناعات الزراعية الراجحة ؟
لو أتيح لأحدنا أن يشهد كيف تحلب نساؤنا القرويات
اللبن ، وكيف يجهزن الجبن والزبد ، لأتف من مجرد رؤيتهما ،
فالفتاة تذهب أحياناً إلى البقرة وآثار روث البهائم لاتزال
في يدها ، وتضعه في إناء قدر يعلوه التراب ، ثم تغطيه بقليل
من حشائش الأرض ، بينما يشهد الإنسان فتاة سويسرية
تحلب اللبن فيود أو يلتهمه من يدها دافئاً ، وينسى أمام
روعة النظافة وإغرائها ، حكمة الإغلاء وأناقة الموائد .



لقد عارض الكثيرون في مسألة قبول الفتيات بمدارس
الزراعة ، وكانت حججهم في ذلك أن الوظائف الزراعية
التي يرشح لها خريجو الزراعة تقتضي جليداً وقوة ليسا
للفتاة ، وأن الدراسة الزراعية تتطلب مجهوداً شاقاً هو أكثر
من أن تتحمله الأنوثة الضعيفة ، فاما عن مسألة الوظائف
الزراعية فيدحضها كون الفتاة تلتحق بمدرسة الزراعة وهي

تعرف يقيناً أن الحكومة أن تتعهد بتوظيفها ، وليس يكفي أن نمنع الفتيات عن مدرسة ما ، لمجرد توهم أنهن قد يطالبن بوظائف لا تتقيد الحكومة بها .

وأما عن صعوبة الدراسة فقد أثبتت الفتيات في جميع الدراسات والأعمال التي قمن بها ، أن لهن جليداً على العمل وتصبراً ، هذا إلى أن الفتيات لا يجهلن هذه الصعوبة ، بل يقدرن مداها حق التقدير ، قبل أن يطالبن الالتحاق بتلك المدارس .

على أن النساء قد اقتحنن على الرجال كل شيء ، فالتحقن بمدارس الطيران وفيها من الخطر على الحياة ما لا تقاس بمثله مشاق الزراعة ، والتحقن بكليات الحقوق مع أن القضاء لن يعطل يوماً ما لقلة المحامين الرجال ، والتحقن بمدارس التجارة وللتجارة مفاجأتها الرهيبة ، ومواقفها الدقيقة ، وهن في كل هذه الحالات يجدن وسيلة للكسب ولكن على حساب الشبان ، ويشغلن وظائف لا تتفق وطبيعتهن وما يجب لأوثقهن من حرص وحياء ، وكان يجب أن يشغلها شبان عاطلون الآن ، ولكننا رغم هذا خضعنا للظروف الشاذة التي خلقتها الحرب العظمى ،

وتركناهن يقتحمن على الرجال تلك الأعمال ، فلم نحول
بينهن وبين التعليم الزراعى الذى يتفق واستعدادهن ،
ويلائم بيئتهن المصرية ، وسيكون من ورائه إصلاح القرى ،
وإنماء الثروة القومية التى تعتمد على الزراعة كل الاعتماد ،
وإيجاد عمل مسل راجح لكثير من الفتيات ، دون المساس
بمصالح الشبان ؟

بعد هذا كله لا أتردد من الاعتراف بأن مدارس
الزراعة فى برامجها الحالية ، ونظامها الراهن ، لا تكاد تصلح
للفتيات ، ذلك لأنى لا أغفل الفرق بين طبيعتى الفتى والفتاة
واستعدادهما ، بل وألح فى التفريق بينهما فى برامج التعليم
بحيث يراعى فى هذا التفريق ، اختلاف مركزهما المستقبل
فى الحياة .

فى البرامج الحالية لمدارس الزراعة ، بعض مواد ترهق
الفتاة ، كعملية التدخين والحرث والعزق فى حقول التجارب ،
ولئن كان المستقبل للآلات الزراعية التى ستعفى الطلبة من
مثل هذا الاستعداد ، إلا أن مسألة تعديل البرامج أمر سهل ،
متى سلمنا جميعا بوجوب قبول الفتيات فى مدارس الزراعة

وما أحسب أن كلية الزراعة يعز عليها تأليف لجنة عاجله ،
تعد نظاما خاصا للفتيات بتحويل برامج الطلبة ، كما تم في
التعليم الثانوى هذا العام .

إنى أعتقد يقينا أنه متى توفرت لدينا الرغبة فى قبولهن ،
ومتى سلمنا بأهمية ذلك القبول ، فإن التعديل سهل ميسور
كما كان سهلا ميسورا فى التعليم الثانوى ، حيث تم فى فترة
قصيرة معقولة ، ولم يمنع اختلاف البرامج ، تساوى الجنسين
فى الشهادة العلمية والدرجة .

مدارس الزراعة هى المدارس الوحيدة التى يمكن أن
تتعلم الفتيات فيها علم أصول النبات والحشرات والبكتريولوجيا
والكمياء ، والصناعات الزراعية وفلاحة البساتين ، وسوف
يكون منهم طلائع الإصلاح فى القرى ورسائل النهضة بين
أهلها .

على أنى لا أطالب بقبولهن فى كلية الزراعة فقط ، وإنما
ألح فى إنشاء مدارس زراعية أولية ومتوسطة فى عواصم
المديريات ، فقد آن الأوان لى نهتم بالتعليم الزراعى ونشر
ثقافته فى بلادنا الزراعية التى أقامت مجدها على أسنة الفئوس .

فلنفسح الطريق للفتاة كي تتغلغل في الريف وترى
بعينها أى نوع من الشقاء يتخبط فيه الفلاح ، وأية حياة
ذليلة مريضة يحياها ، ولنتركها تدرس الزراعة لتؤدى رسالة
الحياة فى هذه القبور المهجورة التى طال اشتغالنا عنها ، ثم
فلنذكر دوا ما أننا لا ننقصنا وسائل إصلاح القرى بقدر
ما ينقصنا صدق الشعور بشقاء الفلاح ، وصدق التقدير
لحاجتنا إلى الفلاح ، وأخيرا صدق الاهتمام بإصلاح
الفلاح !



اقتراع جبرى

ترددت طويلا قبل أن أكتب كلمتى هذه ، وتهيبت
البحث فى مسائل فنية ليس من الحكمة درسها على المكتب ،
وليس من السهل إيجاد حلول عملية ممكنة التنفيذ ، مهمة
ترأت لنا حلول نظرية كثيرة .

فى وصف شقاء الفلاح ، لم أكن فى حاجة إلا إلى عين
تبصر ، وقلب يحس ويشعر ، وقلم يترجم ويعبر . وكانت
خبرتى العادية فى الشؤون الاقتصادية ، واتصالى بمعيشة
الزراع ، يسهلان على تلك المهمة ، ولكن مسألة وضع
الخطط الإصلاحية للريف ليست كذلك ، إنها تقتضى
خبرة فنية لا أجروء على ادعائها ، وتستلزم بحوثاً عملية
منقحة لا أتحل إمكان القيام بها .

كان هدفى الوحيد فى بحوثى الريفية ، إثارة الاهتمام
بإصلاح القرى ، وكانت وسيلتى إلى تلك الغاية ، محاولة
وصف البؤس الأليم الذى يهيم فيه الفلاح والحياة المنحطة

التي يحياها ، فأما طريق الإصلاح فأنا أتركه للمسؤولين عن
شقاء الفلاح وللفنيين وذوى الخبرة .

ولكن كيف يضع الفنيون خطة الإصلاح ؟
فى هذا فقط أستطيع أن أقترح اقتراحاً جدياً أرجو
أن يكون له صدى .

مسألة إصلاح القرية ورفع مستوى معيشة الزراع
الأشقياء ، تقتضى دراسة كاملة عاجلة لنواحى الانحطاط
الذى يهيم فيه الفلاح ، ويلزمها بحث شامل لحياته تشترك
فيه الهيئات المسئولة جميعاً ، وفى مقدمتها وزارتا المالية
والزراعة ، ومصلحة الصحة وإدارة الأمن العام وقلم قضايا
الحكومة ، ثم الجمعية الزراعية الملكية وجمعية خريجي
مدارس الزراعة . فلو عقد مؤتمر زراعى عاجل يتوفر على
بحث الداء ووصف الدواء ، لتيسرت للفلاح الشقى المجاهد
حياة ممكنة معقولة ، ويقنى أن الجهود الفردية الموزعة بين
الهيئات المختلفة بطيئة الأثر وإن كانت محققة الفائدة ،
والرأى عندى أن تتعاون هذه الهيئات جميعاً فى إيجاد خطة

منظمة حاسمة للإصلاح ، فتقوم وزارة المالية بتخفيف الضرائب التي ترهق الفلاح وتدفعه قسرا إلى أيدي المرابين الظالمين ، وتتكفل وزارة الزراعة بحماية الملكية الصغيرة في بلاد يقول عنها عميد كلية الزراعة إنها «عريقة في الزراعة والزراعة هي جل رأس مالها» والإرشاد المنتج الذي يسهل على الفلاح إدراكه أولا وتنفيذه ثانيا ، وفي الوقت نفسه تخصص مصلحة الصحة أكبر مجهود ممكن في إنقاذ الفلاح من المياه الملوثة والمسكن غير الصحية والبرك التي تحمل عوامل الفتك بالفلاح المسكين والقضاء عليه . بينما تتكفل إدارة الأمن العام وقلم قضايا الحكومة بالإشراف الفعلي على العمدة الظالمين وحماية الفلاح من استبداد بعضهم بقانون حازم صريح ، وإلغاء قانون العونة الذي لا يحترق بناره إلا الفلاحون الأشقياء ، ويأتى ذلك بتفسير قانون تحريم السخرة في صالح الفلاح وعدم التقيد بحرفية القانون ، والتغفل في روجه لفهم أن قانون العونة ليس إلا نوعا من السخرة البغيضة ، وبجانب هذه الجهود المتكاثفة تنتفع الأمة بنشاط الجمعيات الزراعية في إصلاح الأراضى البور

وإنشاء مناطق زراعية تساعد على ترقية حال الفلاح وتخفف الضغط الهائل على الأراضى المنزرعة الآن والتي يسكنها ٩٩ ٪ من مجموع السكان ، بينما لا تبلغ مساحتها أكثر من ١ ٪ من مساحة القطر المصرى ، وتمهد العيش الهنىء المنتج لعشرات الآلاف من العمال العاطلين والمزارعين البؤساء .

ثم فلا كن عملية إلى حد ما ، ولأتساءل مع المتسائلين . « أمن الممكن إنكار اللجان التي تألفت وتتألف فى سبيل الفلاح ؟ » فى هذا لا أعارض ! لقد اجتمعت لجان كثيرة ، أكثر مما أبغى وما أطلب ! ووضعت مقترحات عدة ، وتنفذ بعض هذه الاقتراحات .

ولكن ماهى الفائدة العملية التى اكتسبها الفلاح أخيراً ؟ هل ارتقى مستوى معيشته فأصبح يحيا كإنسان ؟ هل خف هجوم الأمراض المستوطنة التى تكمن له فى كل شبر من أرض القرية وفى كل قطرة من مياهها الملوثة ، وفى الهواء الذى يستنشقه متشبعاً بأبخرة البرك والمستنقعات ؟

هل صار يشعر بإنسانيته ويهتم بنظافة ثيابه وجسمه
ومسكنه ؟ هل زاد إنتاجه أو احتفظ بمستوى إنتاجه
العادى ؟ وإن كان فبأى ثمن ؟ هل تيسر له الغذاء الكافى
المتواضع والحياة الآمنة المطمئنة التى تحبب إليه العمل
والجهاد ؟

لست أجيب على هذه الأسئلة . وإنما أطلب إلى أولى
الأمر أن يبسطوا للناس النتيجة العملية التى عادت على
الفلاح من عشرات اللجان التى كثرت حتى لم تعد
ذاكرتى تقوى على اختزان أسمائها ! ولست أحب أن نقرأ
الأسلوب الذى تعودناه من نحو (قامت المصالح المسئولة
بنصيبها من المسئولية) . وإنما أحب أن تبسط الفوائد
الجدية المعقولة التى عادت على الفلاح من برامج الإصلاح ،
وإلى أن نظفر بهذا البيان لا بأس من الجهر بأنى
لا أعترف بسبق وجود برامج إصلاحية ، تمس حياة
الفلاح بطريقة مباشرة ، وكل ما تم منها كان يقصد به
زيادة الإنتاج ، لا بطريقة معقولة وإنما على حساب الفلاح
المسكين .

موقفنا من الفلاح ليس مسألة معقدة يحتاج إدراكها إلى بحث أو ذكاء ! إنه موقف بسيط لا يمكن تأويله بغير حالتين ، إما أن نكون لم نهتم برفع مستوى معيشته وإما أن نكون قد بذلنا الجهد في هذا السبيل . فإن كانت الأولى فقد حان الوقت إذن لنبدأ في الإصلاح بمقتضى خطة منظمة يرسمها المؤتمر الزراعى العام الذى ألح فى الدعوة إليه . وإن كانت الثانية فإن هذه الجهود التى بذلناها قد ضاعت عبثاً لأن الفلاح لا يزال يرسف فى أغلال عوزة ومرضه وشقائه ، وإذن فلا بد من البحث فى أسباب فشلها ، ولا بد من تغيير خطة العلاج مادام الداء لا يزال كما هو قويا قاتلا ، وفى الحالين تبدو الضرورة ملحة قاسية إلى عقد مؤتمر عام يدرس حياة الفلاح فى مراحل ثلاث : أولاها ، حياته المستقلة التى يجب أن يتوفر فيها ما يقربها من الحياة الإنسانية المعقولة ، والثانية نوع الصلة بين إنهاض الفلاح وبين ثبات الميزان الاقتصادى فى الدولة ، والثالثة مسألة العلاقة بين الفلاح وبين المالك .

فاما حياته المستقلة فأحب أن ننظر إلى الفلاح كإنسان له حقوق بقدر ما عليه من واجبات ، يجب أن تتاح له حياة معقولة ممكنة. وعلى ضوء هذه النظرة ، تبدو لنا فداحة الشقاء الذى يغمر الفلاح الذى لا يعرف من الغذاء إلا ما يسد الرمق ولو لم يمد الجسم بحاجته من عناصر التغذية ، ومن الشراب إلا ما يطفىء لهب الظمأ ، ولو كمننت فيه جرائم امراض تقتله وتفتك به ، ومن اللباس إلا ما يستر العورة ولو لم تكن له النظافة الواجبة له كإنسان ، ومن المسكن إلا المكان الضيق المظلم الذى يأوى إليه وأولاده ودوابه جميعاً ، ولو لم يتوفر له ما يجب للمساكن من ضوء وهواء نقي واتساع ، حياته الشقية الأليمة لن تصلح إلا إذا نظرنا إلى الفلاح كإنسان مثلنا تماماً ، وإلا إذا جردنا على التفكير فى مدى احتمالنا لو قدر لنا أن نحيا الحياة التى يحياها .

وأما الصلة بين إنهاض الفلاح وبين ثبات الميزان الاقتصادى فى الدولة فتلك مسألة فيها أنانية ، وإن كان فيها نظر ، مصلحة الدولة هى قبل كل شىء وفوق كل اعتبار ، ولكن دراسة حياة الفلاح وتأثيره القوى فى مستقبل الدولة

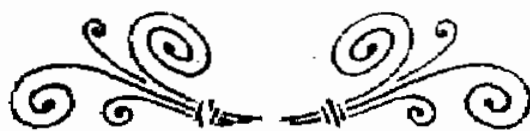
توضح لنا أننا ننظر إلى المسألة نظرة معكوسة ، فمن الخطأ الفادح أن نمضى فى طريقنا إلى إصلاح ميزانية الدولة على حساب الفلاح المسكين ، وأن ننمى ثروتنا الزراعية بإرهاقه وإهلاكه ، ونحن فى هذا لا نفكر فى المستقبل يوم يهلك الفلاح فتخرب الدولة ، ولا ننظر إلا إلى مدى محدود من إصلاح يقوم على الفساد ، والوضع المعقول لصلة الفلاح بالدولة هو أن نصلحه لتنمو الثروة ، وأن ننهض بحياته ليزداد إنتاجه ونقوى بذلك على مقاومة التنافس فى الأسواق الدولية المضطربة ، ونحن بهذا نستطيع أن ننظر إلى المستقبل نظرة الثقة والاطمئنان ، لأننا أقمنا نهضتنا الزراعية على أساس متين من إصلاح الفلاح وهو يد مصر العاملة ، القادرة على إسعادها .

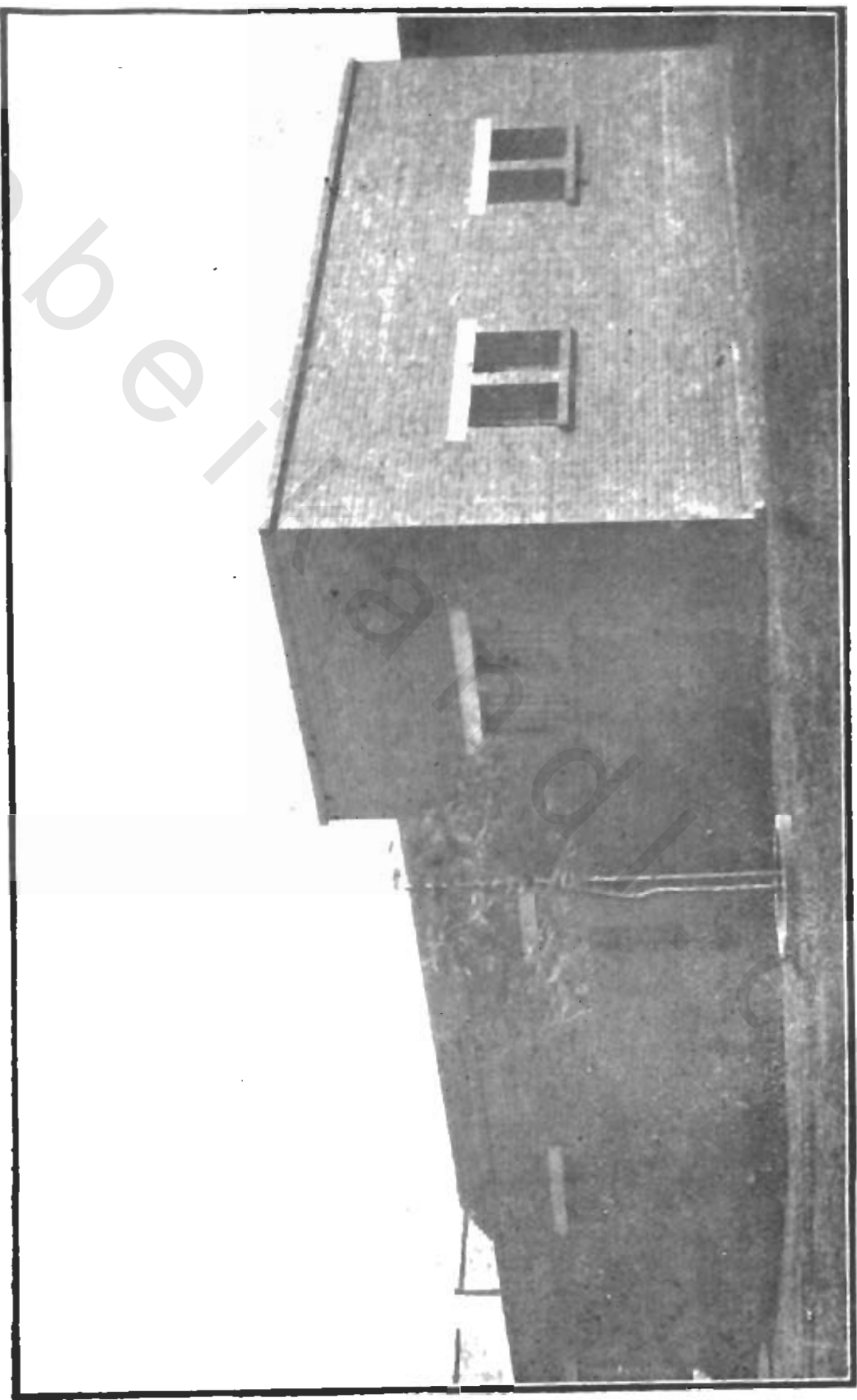
وتبقى بعد ذلك مسألة العلاقة بين الزراع والملاك ، وقد نبهنى إليها أحد كبارنا المشتغلين بالشئون الزراعية ، فقد يكون من السهل أن نجد طريقة لإصلاح حال فئة الزراع ، ولكنها غالباً تمس مصالح الملاك وهنا تبدو صعوبة

الإصلاح ، لأن الطرق العملية التي يؤخذ بها لا يصح أن تتعارض مع مصالح فئة أخرى

وأرى من ناحية أخرى أن مراعاة مصالح الملاك ليس معناها إرهاب الفلاحين التعساء ، وأن علينا أن نأخذ بحل أوسط نكفل به إيجاد التوازن بين مصالح الفئتين ، والمؤتمر الزراعي وحده هو الكفيل يبحث هذه المسألة وإيجاد الحل المنشود .

أخيراً . . . لقد ناديت بحماية الفلاح وألحجت في النداء . . . والآن أخشى أن أصبح وأمسى فإذا بالظروف تلجئني إلى الإلحاح في المطالبة بإنقاذ الفلاح !





المبنى النموذجي للفلاح المجاهر